فاتحة أنيقة في التنويه بالقرآن جعلت مقدمة لهذه السورة لأن القرآن جامع لما حوته وغيره من أصول الدين . ف ( تنزيل ) مصدر مراد به معناه المصدري لا معنى المفعول كيف وقد أضيف إلى الكتاب وأصل الإضافة أن لا تكون بيانية .

وتنزيل : مصدر نزل المضاعف وهو مشعر بأنه أنزله منجما . واختيار هذه الصيغة هنا للرد على الطاعنين لأنهم من جملة ما تعللوا به قولهم ( لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ) . وقد تقدم الفرق بين المضاعف والمهموز في مثله في المقدمة الأولى .

والتعريف في ( الكتاب ) للعهد وهو القرآن المعهود بينهم عند كل تذكير وكل مجادلة .

وأجرى على اسم الجلالة الوصف ب ( العزيز الحكيم ) للإيماء إلى أن ما ينزل منه يأتي على ما يناسب الصفتين فيكون عزيزا قال تعالى ( وإنه لكتاب عزيز ) أي القرآن عزيز غالب بالحجة لمن كذب به وغالب بالفضل لما سواه من الكتب من حيث إن الغلبة تستلزم التفضل والتفوق وغالب لبلغاء العرب إذ أعجزهم عن معارضة سورة منه ويكون حكيما مثل صفة منزله .

والحكيم : إما بمعنى الحاكم فالقرآن أيضا حاكم على معارضيه بالحجة وحاكم على غيره من الكتب السماوية بما فيه من التفصيل والبيان قال تعالى ( مصدقا لمن بين يديه من الكتب ومهيمنا عليه ) .

وأما بمعنى : المحكم المتقن فالقرآن مشتمل على البيان الذي لا يحتمل الخطأ وإما بمعنى الموصوف بالحكمة فالقرآن مشتمل على الحكمة كاتصاف منزله بها .

وهذه معان مرادة من الآية فيما نرى على أن في هذين الوصفين إيماء إلى أن القرآن معجز ببلاغة لفظه وإعجازه العلمي إذا اشتمل على علوم لم يكن للناس علم بها كما بيناه في المقدمة العاشرة .

وفي وصف ( الحكيم ) إيماء إلى أنه أنزله بالحكمة وهي الشريعة ( يؤتي الحكمة من يشاء ) .

وفي هذا إرشاد إلى وجوب التدبر في معاني هذا الكتاب ليتوصل بذلك التدبر إلى العلم بأنه حق من عند ا قال تعالى ( سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ) .

ومعنى ( العزيز الحكيم ) في صفات ا تقدم في تفسير قوله تعالى ( فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن ا عزيز حكيم ) في سورة البقرة .

وافتتاح جملة ( إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ) بحرف ( إن ) مراعى فيه ما استعمل فيه

الخبر من الامتنان . فيحمل حرف ( إن ) على الاهتمام بالخبر . وما أريد به من التعريض بالذين أنكروا أن يكون منزلا من ا فيحمل حرف ( إن ) على التأكيد استعمالا للمشترك في معنييه . ولما في هذه الآية من زيادة الإعلان بصدق النبي المنزل عليه الكتاب جدير بالتأكيد لأن دليل صدقه ليس في ذاته بل هو قائم بالإعجاز الذي في القرآن وبغيره من المعجزات فكان مقتضى التأكيد موجودا بخلاف مقتضى الحال في قوله ( تنزيل الكتاب من ا ) .

فجملة ( إنا أنزلنا إليك الكتاب ) تتنزل منزلة البيان لجملة ( تنزل الكتاب من ا ) .

وإعادة لفظ ( الكتاب ) للتنويه بشأنه جريا على خلاف مقتضى الظاهر بالإظهار في مقام الإضمار .

وتعدية ( أنزلنا ) بحرف الانتهاء تقدم في قوله ( والذين يؤمنون بما أنزل إليك ) في أول البقرة .

والباء في ( بالحق ) للملابسة وهي ظرف مستقر حالا من ( الكتاب ) أي أنزلنا إليك القرآن ملابسا للحق في جميع معانيه ( لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ) .

وفرع على المعنى الصريح من قوله ( إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ) أن أمر بأن يعبد ا مخلصا له العبادة . وفي هذا التفريع تعريض بما يناسب المعنى التعريضي في المفرع عليه وهو أن المعرض بهم أن يعبدوا ا مخلصين له الدين عليهم أن يدبروا في المعنى المعرض به . وهذا إيماء إلى أن إنزال الكتاب عليه نعمة كبرى تقتضي أن يقابلها الرسول A بالشكر بإفراده بالعبادة وإيماء إلى أن إشراك المشركين با غيره في العبادة كفر لنعمه التي أنعم بها فإن الشكر صرف العبد جميع ما أنعم ا به عليه فيما خلق لأجله وفي العبادة تحقيق هذا المعنى قال ( وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ) . فالمقصود من الأمر بالعبادة التوطئة إلى تقييد العبادة بحالة الإخلاص من قوله ( مخلصا له الدين ) فالمأمور به عبادة خاصة ولذلك لم يكن الأمر بالعبادة مستعملا في معنى الأمر بالدوام عليها .

A E